

بعض أخباره

قابلنا بين جميل وعمر بن أبى ربيعة فى أكثر من خصلة واحدة من خصال الفن والحياة، إذ الحقيقة أنهما متقابلان يوشك أن يتناظرا فى جميع الخصال: بدواة وحضارة، وعكوف على محبوبة واحدة وتشبيب بجميع الحسان، وعاطفة تغلب فيها الحاسة الإنسانية حيث كانت، وعاطفة تغلب فيها حاسة الطبقة الاجتماعية التى منها الشاعر، وكلا الشاعرين صادق فيما يمثله أو فيما يحكيه.

وإنهما ليتقابلان فى أخبارهما كما يتقابلان فى تلك الخصال التى أشرنا إليها.

فأخبار عمر مفهومة من ديوانه لأنه ينظم فحواها ولا يدع منها إلا بعض التفاصيل، وأخبار جميل تحتاج إلى الرواة والناقلين، لأن الذى نظمها منها فى ديوانه قليل الغناء فى باب الأخبار، وإنما يدل على سيرته من طريق التفسير والتعقيب. واختلاف العاطفتين يتأدى بنا إلى علة الفارق بينهما فى هذه الخصلة كما يتأدى بنا إلى علل الفوارق بينهما فى جميع الخصال.

فابن أبى ربيعة كان له فى كل يوم خبر وعلاقة، وكان همه الأكبر أن يتحدث إلى الحسان ويتحدث عن الحسان. فلا عجب فى اتساع ديوانه للأخبار المنظومة التى هى متعته وهجيره. أما جميل فعاطفته خبر واحد، إن لم ينظم فى الحنين والشكوى فلا نظم عنده، ولا تأتية الأخبار التى ينظم فيها إلا حين يطرأ طارئ يغير مجرى تلك الحياة الرتيبة، كما قال حين خرج عليه أهل بثينة:

ولست بناس أهلها حين أقبلوا
وجالوا علينا بالسيوف وطوفوا
وقالوا جميل بات فى الحى عندها
وقد جردوا أسيافهم ثم وقفوا
أو كما قال حين وقف متذكراً على الأطلال:

بينما هن بالأراك معا إذ بدا راكب على جملة
فتناظرن ثم قلن لها أكرميه حييت فى نزله
ولا غنى مع شعره عن نتف من أخباره التى تناقلها الرواة،
وهى مما يزكيه شعره ويثبته فى الجملة وإن عرضت له الزيادة

والاختراع فى التفصيل ، وعلى هذا النحو هذه النخبة التالية
من أخباره الكثيرة التى توخينا فيها الدلالة عليه ، وتجنبنا
التكرار فيما يشبه ما اخترناه.

«بين نظيرين»

لقى عمر بن أبى ربيعة جميلا فى طريقه إلى الشام ،
فاستنشدته من شعره فأسمعه من قوله :

خليلىّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلى
ثم قال له : أنشدنى أنت يا أبا الخطاب ، فأسمعه قصيدته
العينية التى أولها :

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ببطن حُلَيّات دوارس بلقعا
فلما بلغ إلى قوله :

فلما تواقفنا وسلمت أشرقمت وجوه زهاها الحسن أن تتقنعا
تبا لهن بالعرفان لما عرفنى وقلن امرؤ باغ أكل وأوضعا^(١)

(١) تعب وأسرع.

وقرّبن أسباب الهوى لمتيمم يقيس ذراعاً كلما قسن أصبعاً
فصاح جميل واستخذى وقال: ألا إن النسيب أخذ من هذا،
وما أنشد بعد ذلك حرفاً.

فقال له عمر: اذهب بنا إلى بثينة حتى نسلم عليها.
فامتنع جميل واعتذر بإهدار السلطان دمه إن وجدوه عندها،
وأشار له إلى أبياتها. فتقدم عمر حتى وقف على الأبيات
وتأنّس حتى كلم، فقال: يا جارية! أنا عمر بن أبي ربيعة
فأعلمي بثينة مكاني، فخرجت إليه بثينة في مبالها وهي
تقول: والله يا عمر لا أكون من نساءك اللاتي يزعمن أن قتلهن
الوجد بك، فانكسر عمر، ونظر فإذا امرأة أدماء طوالة.

«بين الأستاذ وتلميذه»

والتقى جميل وكثير فتذاكرا النسيب، فقال كثير:
يا جميل، أترى بثينة لم تسمع بقولك:

يقيقك جميل كل سوء أمله

لديك حديث أو إليك رسول؟

وقد قلت في حبي لكم وصابتي

محاسن شعر ذكرهن يطول

فإن لم يكن قولى رضاك فعلمى
 نسيم الصبا يا بثن كيف أقول
 فما غاب عن عيني خيالك لحظة
 ولا زال عنها والخيال يزول
 فقال جميل: أترى عزة يا كثير لم تسمع بقولك:
 يقول العدا يا عزُّ قد حال دونكم
 شجاع على ظهر الطريق مصمم
 فقلت لها والله لو كان دونكم
 جهنم ما راعت فؤادى جهنم
 وكيف يروع القلب يا عز رائع
 ووجهك فى الظلماء للسفر معلّم^(١)
 وما ظلمتك النفس يا عز فى الهوى
 فلا تنقمى حبى فما فيه منقم
 ثم بكيا قطعة من الليل وانصرفا...

(١) السفر: المسافرين، والمعلم: ما يهتدون به من علامات الطريق.

«جَلَّتْهَا أَوْ لَمْ تَجْلُهَا؟»

كان أهل بثينة يأتُمون عليها عَجوزًا منهم يقال لها:
أم منظور، فجاءها جميل يسألها أن تريه بثينة. فقالت:
لا والله، لا أفعل وقد ائتمنوني عليها. فتوعدها ليضرّنها...
قالت: المضرة والله في أن أريكمها. فخرج من عندها
وهو يقول:

ما أنس لا أنس منها نظرة سلفت
بالجَر يوم جلتها أم منظور
ولا انسلابتها خُرسًا جبائر^(١)ها
إلى من ساقط الأوراق مستور

فما كان إلا قليل حتى انتهى إليهم هذان البيتان فاتهما أم
منظور وهي تقسم لهم فلا يصدقونها!
وقيل في رواية أخرى: إن مصعب بن الزبير أنشد هذين
البيتين فقال: لوددت أنى عرفت كيف جلتها، فأخبروه
أن أم منظور هذه حية، فكتب في حملها إليه مكرمة،
وسألها عن الجلوة فقالت: ألبستها قلادة بلح ومخنقة بلح

(١) الجبائر: الأساور، والأوراق: جمع وروق هو الفسطاط.

واسطتها تفاحة، وضفرت شعرها وجعلت في فرقها شيئاً
من الخلق - أى الطيب - وممر بنا جميل ركباً ناقته فجعل
ينظر إليها بمؤخر عينيه ويلتفت إليها حتى غاب عنا. فأقسم
عليها مصعب لتجلون امرأته عائشة بنت طلحة مثل ما جلّت
بثينة، ففعلت. وركب مصعب ناقته وأقبل عليها وجعل
ينظر إلى عائشة بمؤخر عينيه ويسير حتى غاب عنهما...
ثم رجع.

«يتهمها ولا يُتهم بأمة»

أشاع أهل بثينة أن جميلاً إنما يتبع أمة لهم، ليدفعوا
عنهم الوصمة ويصموه، فواعد جميل بثينة حتى لقيها ببرقاء
ذى ضال وتحادثا ليلاً طويلاً حتى أسحرا، فاقترح عليها أن
ترقد فقالت: ما شئت! على أنى خائفة أن نكون قد أصبحنا،
فوسدها جانبه ثم اضطجعا ونامت، وانسل مستويّاً على
راحلتيه، وأصبحت في مضجعها فرآها الحى راقدة عند مناخ
راحلة جميل، وفي ذلك يقول:

فمن يك في حبي بثينة يمتري فبرقاء ذى ضال على شهيد

«لغة واحدة»

قال كثير: لقيني جميل مرة فسألنى: من أين أقبلت؟
قلت: من عند أبى الحبيبة - أعنى بثينة.
فسألنى: وإلى أين تمضى؟
قلت: إلى الحبيبة - أعنى عزة.
فقال: لا بد أن ترجع عودك على بدئك فتستجد لى موعداً
من بثينة.

فاستحييت أن أرجع وعهدى بها الساعة. وألح قائلاً: لا بد
من ذلك. فسألته: متى عهدك ببثينة؟ فقال: فى أول الصيف
وقد وقعت سحابة بأسفل وادى الدوم، فخرجت ومعها
جارية لها تغسل ثيابها. فلما أبصرتنى أنكرتنى فضربت
بيديها إلى ثوب فى الماء فالتحفت به، وعرفتنى الجارية
فأعادت الثوب فى الماء، وتحدثنا حتى غابت الشمس، ثم
سألتها الموعد فأنبأتنى أن أهلها سائرون، ولم أجد أحداً
آمنه فأرسله إليها.

قال كثير: فاقترحت عليه أن آتى الحى فأتمثل بأبيات
من شعر أذكر فيها هذه العلامة إن لم أقدر على الخلوة بها.
فوافقنى، وخرجت حتى أنخت بالقوم، فسألنى أبوها:

ما ردك؟ قلت: ثلاثة أبيات عرضت لى فأحببت أن أعرضها عليك، وأنشدته وبثينة تسمع:

فقلت لها يا عز أرسل صاحبي
إليك رسولا والموكل مرسل
بأن تجعلى بينى وبينك موعداً
وأن تأمرينى ما الذى فيه أفعـل
وآخر عهدى منك يوم لقيتنى
بأسفل وادى الدوم والثوب يُغسل

فصربت بثينة جانب خدرها وقالت: اخساً. واخساً. فقال أبوها: مَهِيمٌ^(١) يا بثينة! قالت: كلب يأتينا إذا نوم الناس من وراء الرابية. ثم صاحت بالجارية أبغينا من الدومات حطباً لنذبح لكثير شاة ونشويها له!

فقلت: أنا أعجل من ذلك، ورحت إلى جميل فأخبرته، فعلم أن الموعد الدومات، وخرجنا حتى أتيناها، ثم جاءت بثينة مع بنات خالتها الثلاث، فما برحنا حتى برق الصبح،

(١) مهيم: كلمة يمنية معناها: ما خطبك؟ وماذا بك؟

فما رأيت مجلساً قط أحسن من ذلك ، ولا رأيت مثل علم أحدهما
بضمير الآخر.

«خداع سهل»

سعت أمة لبثينة بها إلى أبيها وأخيها ، وقالت لهما : إن
جميلاً عندها الليلة !

فأتياها مشتملين على سيفين ، فرأياه جالساً حجرة^(١) منها
يحدثها ويشكو إليها بثه. ثم قال لها : يا بثينة ؛ رأيت ودى
إياك وشغفى بك ألا تجزينيه؟

قالت : بماذا؟

قال : بما يكون بين المحبين.

فأجابته مغضبة : يا جميل . أهذا تبغى؟ والله لقد كنت عندي
بعيداً منه ، ولئن عاودت تعريضاً بريبة لا رأيت وجهي أبداً.
فضحك وقال : والله ما قلت لك هذا إلا لأعلم ما عندك
فيه ؛ ولو علمت أنك تجيبني إليه لعلمت أنك تجيبين
غيري ، ولو رأيت منك مساعدة عليه لضربتك بسيفي هذا

(١) أى ناحية منها.

ما استمسك في يدي ، ولو أطاعتني نفسي لهجرتك هجرة
الأبد ، أو ما سمعت قولي :

وإني لأرضى من بثينة بالذى
لو أبصره الواشى لقرت بلابله
بلا ، وبأن لا أستطيع ، وبالمنى
وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى وبالحول تنقضى
أواخره لا نلتقى وأوائله

فقال أبوها لأخيها : قم بنا . فما ينبغي بعد اليوم أن نمنع
هذا الرجل من لقائها .

«سكرة وصحوة»

رصد جميل بثينة فى نجعة لأهلها ، حتى إذا صادف منها
خلوة فى ليلة ظلماء ذات غيم وريح ورعد ، سكر ودنا منها
وحذفها بحصاة فأصابته بعض أترابها . ففرغت وقالت : «والله
ما حذفنى فى هذا الوقت بحصاة إلا الجن !» وفطنت بثينة
فصرقتها ناحية من منزلها ، وبقيت مع بثينة أم الجسير
أختها وأم منظور . فقامت إلى جميل فأدخلته الخباء معها

وتحدّثا طويلاً، ثم اضطجع واضطجعت إلى جنبه فذهب النوم بهما حتى أصبحا.

وجاءها غلام زوجها بصبح من اللبن بعث به إليها فرآها نائمة مع جميل. فمضى لوجهه حتى خبر سيده.

ورأته ليلي أخت بثينة وكانت قد عرفت خبرها وخبر جميل تلك الليلة، فاستوقفته كأنها تسأله عن حاله، وبعثت بجارية لها تحذر صاحبتهما، فجاءت الجارية فنبهتهما، وصاحت بثينة بجميل وقد تبينت الصبح: نفسك! نفسك، وهو غير مكترث لتخويفها يتمثل لها بقوله:

لعمرك ما خوفتني من مخافة

بثين ولا حذرتني موضع الحذر

فأقسم لا يُلقَى لي اليوم غيرة

وفي الكف منى صارم قاطع ذكر

فأقسمت عليه أن يلقي نفسه تحت متاع البيت، وأفهمته أنها إنما تسأله ذلك خوفاً على نفسها من الفضيحة لا خوفاً عليه.

ففعل كارها، ونامت هي كما كانت وإلى جانبها أم الجسير.

ثم أقبل زوجها ومعه أبوها وأخوها يأخذ بأيديهما ولا يشك في

أنه سيطلعهما على ريبة كما أنباه غلامه. فلما كشفوا الثوب إذا
أم الجسير حيث كانوا ينظرون جميلاً! فخجل الزوج، وصاحت
أختها ليلي: قبكما الله! أفي كل يوم تفضحان فتاتكما ويلقاكما
هذا الأعور - تعنى زوج بثينة - بكل قبيح؟
قال راوى القصة: وأقام جميل عند بثينة حتى أجنه الليل
ثم ودعها، وانقطعا عن اللقاء إلى أن نسيت القصة!

«بين سلطانيين»

كان عامر بن ربعى بن دجاجة والياً على بلاد عذرة.
فشكا إليه أهل بثينة جميلاً وقالوا: إنه يهجوهم ويغشى
بيوتهم وينسب بنسائهم، فأباحهم دمه إن وجدوه عندهم،
ونجا جميل بنفسه إلى اليمن فلم يزل بها حتى عزل ذلك
الوالى وانتجع بنو عذرة ناحية الشام فارتحل إليهم.

«بثينة تنقد»

لقى جميل بثينة بعد تهاجر طال بينهما، فتعابا ملياً
ثم قالت بثينة: ويحك يا جميل! أتزعم أنك تهوانى وأنت
الذى تقول:

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى
وفى الغر من أنيابها بالقوادح

فأطرق طويلا يبكى. ثم قال: بل أنا القائل:
ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى على كلامها
فقلت له: ويحك!! ما حملك على هذه المنى! أو ليس فى
سعة العافية ما كفانا جميعاً؟!

«خاتمة هوى»

روى أيوب بن عباية قال:
خرجت من تيماء فى أغباش السحر، فرأيت عجوزاً
على أتان، فتكلمت فإذا أعرابية فصيحة. فقلت: ممن أنت؟
قالت: عذرية.

فأجريت ذكر جميل وبثينة فقالت: والله إنا لعلى ماء لنا
بالخباب وقد تنكبنا الجادة^(١) لجيوش كانت تأتينا من قبل
الشام تريد الحجاز، وقد خرج رجالنا لسفر وخلفوا معنا
أحداثاً، فأنحدروا ذات عشية إلى صرم^(٢) قريب منا يتحدثون

(١) الجادة: مستوى الطريق.

(٢) الصرم: الجماعة القليلة من الناس.

إلى جوار منهم، فلم يبق غيرى وغير بثينة، إذ انحدر علينا
منحدر من هضبة تلقاءنا. فسلم ونحن مستوحشون وجلون،
فتأملتة ورددت السلام فإذا جميل!

قلت: أجميل؟

قال: إى واللّه.

وإذا به لا يتماسك جوعاً. فقمّت إلى قعب لنا فيه أقط^(١)
مطحون، وإلى عكة^(٢) فيها سمن ورّب^(٣) فعصرتها على الأقط ثم
أدنيته منه وقلت: أصب من هذا. فأصاب منه، وقمت إلى سقاء
فيه لبن فصببت عليه ماء بارداً فشرب منه وتراجعت نفسه.

فقلت له: لقد بلغت ولقيت شراً فما أمرك؟

قال: أنا والله فى هذه الهضبة التى ترين منذ ثلاث
ما أريّمها أنتظر أن أرى فرصة. فلما رأيت منحدر فتيانكم
أتيتكم لأودعكم وأنا عامد إلى مصر. فتحدثنا ساعة ثم ودعنا
وشخص، فلم تطل غيبته أن جاءنا نعيه، فزعموا أنه قال حين
حضرته الوفاة:

(١) الأقط: اللبن الجاف.

(٢) العكة: الزق الصغير.

(٣) الرب: ما يطبخ من التمر.

صرح النعى وما كنى بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قُفُول
ولقد يجر الذيل فى وادى القرى
نشوان بين مزارع ونخيل
قومى بثينة فاندبى بعويل
وابكى خليلك دون كل خليل

وتحدث من شهد موت جميل بمصر أن جميلاً دعاه فقال:
هل لك فى أن أعطيك كل ما أخلفه على أن تفعل شيئاً أعده
إليك! ... إذا أنا مت فخذ حلتى هذه التى فى عيبتى فاعزلها
جانباً ثم كل شئ سواها لك، وارحل إلى رهط بنى الأحب من
عذرة، فإذا صرت إليهم فارتحل ناقتى هذه واركبها، ثم البس
حلتى هذه واشققها، ثم اعل على شرف وصح بهذه الأبيات:

صرح النعى وما كنى بجميل
وثوى بمصر ثواء غير قُفُول

إلى آخر الأبيات الثلاثة المتقدمة.
قال الرجل: فلما واريته أتيت رهط بثينة ففعلت ما أمرنى
به جميل، فما استتمت الأبيات حتى برزت إلى امرأة يتبعها

نسوة قد فرعتهن طولاً وبرزت أمامهن كأنها بدر قد برز في
دُجْنة وهي تتعثر في مرطها حتى أتتني فقالت: يا هذا! والله
لئن كنت صادقاً لقد قتلتنى، ولئن كنت كاذباً لقد فضحتنى!
قلت: والله ما أنا إلا صادق، وأخرجت حلتها. فلما رأتها
صاحت بأعلى صوتها وصكت وجهها، واجتمع نساء الحى
يبكين معها ويندبنه حتى صعقت فمكثت مغشياً عليها ساعة،
ثم قامت وهي تقول:

وإن سلوى عن جميل لساعةٌ
من الدهر لا حانت ولا حان حينها
سواءً علينا يا جميل بن معمر
إذا مت بأساء الحياة ولينها